

حجة الوداع

إن الوفود تأتي من كل مكان تباعب النبي ﷺ وتدخل في دين الله . . . وغشاوة الشرك قد انزاحت عن شبه الجزيرة . . . وأصبح الأذان ينطلق من كل مكان معلنا بأن دين الله قد انتصر، وأن نبيه قد أدى الأمانة، فلم تعد هناك مواجهات جادة ضد أعداء الإسلام الذين تقلص ظلهم، ولم يعد أحد يمكنه أن يجهر بكلمة الشرك . . . وعزم النبي على أداء الحج حتى يعرف الناس مناسك هذا الركن الخامس من أركان الإسلام فعندما جاء شهر ذى القعدة أمر النبي الناس للاستعداد لحج بيت الله الحرام . . .

ومعروف أن العرب كانت تحج بيت الله الحرام، منذ أن نادى خليل الرحمن إبراهيم بالحج، وكانت هناك أربعة أشهر حرم، حتى يأمن الناس الداهبون إلى بيت الله الحرام هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم . . . وهذه الأشهر أصبحت حرما حتى لا يخشى الحاج من بيت الله من أى شهر، كما كان شهر رجب من الأشهر الحرم، لأنه كان الشهر الذى يذهب فيه الناس لأداء العمرة، فلا قتال ولا سفك للدماء فى هذه الشهور . . . ولكن بيت الله الحرام كانت قد دنسته هذه الأصنام التى وضعت حول الكعبة . . . كما أن العرب ابتدعت عادات سخيفة فى الحج، فبعضهم يطوف بالبيت عرايا وبعضهم الآخر يطوف وهو يصفق ويملأ البيت بالصفير . . . وكل هذا لا يتناسب مع جلال بيت الله ومهابته فى النفوس والقلوب . . .

ان النبي قرر أن يحج إلى بيت الله الحرام . . . بعد أن تطهر من كل هذه الأوثان . . . وحتى يوضح للمسلمين كيف يؤدون هذا الفرض . . . ويعرفون المناسك من: الموقف، ورمى الجمار، وطواف بالبيت، وما أحل لهم من حجهم وما حرم عليهم . . .

وقد سميت هذه الحجة بحجة الوداع . . أو حجة البلاغ . . لأنها الحجة الوحيدة التي حجها النبي ، كما انها الحجة الأخيرة له أيضا . . وفيها خطب خطبته الخالدة ، التي أعلنت حقوق المسلمين ، كأعظم ما تكون الحقوق . . فلم يعرف ميثاق دولي في أي عصر من العصور ، ما انطوت عليه هذه الوثيقة الرائعة التي رسم فيها النبي حقوق المسلم . .

لقد تجهز المسلمون للحج . . وكلهم أمل أن يسيروا في موكب الرسول الكريم ويؤدوا مع النبي الحج ، ولم يسارعوا إلى أداء هذا الفرض وقد سمعوا نبئهم الكريم يقول :

- من حج لله لم يرفث ، ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه .

وإذا كانت قلوب الرجال قد هفت لأداء هذه الفريضة ، فإن النساء كن يتطلعن هن الأخريات لأداء هذه الفريضة ، بعد أن سمعن إجابة النبي على سؤال لأم المؤمنين عائشة :

قالت : يا رسول الله ، نرى الجهاد أفضل الأعمال ، أفلا نجاهد معكم ؟

فرد عليها النبي ﷺ : لا . . لكن أفضل الجهاد حج مبرور . .

لقد خرج النبي حاجا لأول مرة ، فمعروف أن النبي اعتمر مرتين من قبل هذه الحجة ، وأما هذه المرة فقد قرن العمرة بالحج . .

وانطلق ركب المسلمين في خمسة بقين من ذى القعدة ، وكانت السنة هي السنة العاشرة للهجرة . . وسار الموكب العظيم . . وعند (سرف) أمر الناس أن يحلوا بعمرة إلا من ساق الهدى . .

وكان مع النبي من نسائه عائشة ، وحفصة ، وسودة ، وصفية . . وقد أحرم النبي من عند مكان اسمه (ذى الحليفة) . . فلبس ملابس الإحرام ، ثم أخذ يكبر ويهلل . .

- «ليك اللهم ليك، ليك لا شريك لك ليك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.» ..

ونوى الحج والعمرة معا.

وكم كان المشهد رائعا، وعظيما وآلاف من المسلمين يربون عن المائة ألف يتجهون إلى بيت الله الحرام.. إنهم يسيرون وسط الصحراء في طريقهم إلى البيت العتيق.. وأصواتهم الخاشعة تتصاعد إلى السماء، حتى إذا ما ظهر بيت الله الحرام على مرمى البصر قال النبي الكريم:

« اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما ومهابة ونورا، وزد من عظمه ممن حجة واعتمره تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة ونورا » ..

وضربت خيام المسلمين حول الكعبة.

وطاف النبي فوق راحلته بالكعبة سبعا، ثم صلى ركعتين خلف مقام إبراهيم ثم امتطى ناقته وسعى بين الصفا والمروة سبعا.

وأخذ النبي يؤدي مناسك الحج، وعرف المسلمون كيف يؤدون هذه الفريضة كما أداها النبي الكريم.

وعلى عرفات خطب الرسول الكريم خطبة الوداع.. الذي وضح فيها حقوق الإنسان، وبيّن حقوق المرأة، وحرّم الربا، وأن الناس جميعا متساوون في الحقوق والواجبات.. فلا يفضل إنسان على آخر إلا بالتقوى..

لقد وقف النبي، ومائة ألف من المسلمين يستمعون إلى خطبته العظيمة.. التي كان فيها يودع المسلمين.. فلم يقف النبي بعد هذا في هذا المكان.. وكان قد اقترب رحيله إلى الرفيق الأعلى.. فقد أدى الأمانة على أكمل وجه، وما دامت الرسالة قد اكتملت، فهذا يعني أن النبي قد أدى واجبه، وحن له أن يرحل إلى الرفيق الأعلى.

إن الرسول الكريم يقول في هذه الخطبة الجامعة:

- الحمد لله، نحمده ونستعينه . . ونستغفره ونتوب إليه . . ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له . . ومن يضلله فلا هادي له . . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا رسول الله .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، واستفتح بالذي هو خير . . أما بعد أيها الناس:

فاسمعوا أبين لكم، فأنى لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا . . أيها الناس: أتدرون أى يوم هذا؟

قالوا: الله ورسوله أعلم .

فقال عليه الصلاة والسلام: أليس يوم الحج الأكبر؟

قالوا: بلى . .

فقال: أى شهر هذا؟

قالوا: الله ورسوله أعلم .

قال: أليس ذا الحجة؟

قالوا: بلى .

قال: أى بلد هذا؟

قالوا: الله ورسوله أعلم .

قال: أليست البلد الحرام؟

قالوا: بلى .

قال: فإن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا . . ألا هل قد بلغت . . اللهم فاشهد . . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها .

وأن ربا الجاهلية موضوع، وأن أول ربا أبدأ به هو ربا عمى العباس
ابن عبد المطلب.

إن دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن
الحارث.

وأن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية.

والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير فمن
زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد
رضى أن يطاع فيما سوى ذلك فيما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس: إن النسئ زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلون
عاما.. ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله. إن عدة الشهور عند الله
اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم..
ثلاث متواليات وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين
جمادى وشعبان.. ألا هل بلغت.. اللهم فاشهد..

أيها الناس: إن لنسائكم حقا عليكم.. ولكم عليهن حق إلا يوطئن
فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تکرهون بيوتكم إلا بأذنكم. ولا يأتين
بفاحشة، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعظوهن وتهجروهن في المضاجع
وتضربوهن ضربا غير مبرح.. فإن انتهين وأطعنكم، فعليكم رزقهن
وكسوتهن بالمعروف.

وإن النساء عندكم عوان في أيديكم، ولا يملكن لأنفسهن شيئا أخذتموهن
بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله.. فاتقوا الله في النساء واستوصوا
بهن خيرا.. ألا هل بلغت.. اللهم فاشهد.

أيها الناس: ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه..

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد..

فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فأنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده، كتاب الله وسنة نبيه.

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لأدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله اتقاكم، وليس لعربى فضل على أعجمى إلا بالتقوى.

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد. فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فرب مبلغ أوعى من شاهد..

أيها الناس إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث. ولا تجوز لوارث وصية، ولا تجوز وصية فى أكثر من الثلث. والولد للفراش وللعاهر الحجر.

من أذى إلى غير أبيه. أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. لا يقبل منه صرف ولا عدل.

والسلام عليكم ورحمة الله.

ثم نزل قوله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

[المائدة: ٣].

وقد كانت الخطبة فى يوم الجمعة..

* * *